الخطّة الجامعة للعلم الديني - قراءة في أطروحة آية الله الشيخ جوادي الآملي -

الدكتور عبد الحسين رضوي[١]

مدخل:

إنّ النظريّة التي طرحها آية الله الشيخ جوادي الآملي[٢]، - وسنتعرّض لها في هذه المقالة -، مستقاة من علم المعرفة في الحكمة المتعالية، التي تقول بالتوفيق والجمع بين الوسائل المختلفة للمعرفة[٣].

وعلى أساس علم المعرفة، هناك وسائل مختلفة للوصول إلى الحقيقة، جميعها معتبر، وهي متناسبة في ما بينها، وبعضها مكمّل لبعضها الآخر. ومن أجل تحصيل المعرفة، ينبغي السعي للاستفادة من جميع هذه الوسائل، وعدم الاكتفاء بوسيلة واحدة[٤].

---

(١) باحث في الفكر الإسلامي.

(٢) آية الله العلّامة جوادي الآملي من جملة المفكّرين الذين قدّموا في العقدين الأخيرين أبحاثاً كثيرة عن «علاقة العقل والدين»، و«العلم الديني»، وسبروا أبعاد هذه الموضوعات في كتبهم المختلفة، ونظّروا لها. حيث قام في مؤلّفات عدّة، خاصّةً في كتابه: «منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة» (تنظيم وتحقيق حجّة الإسلام أحمد واعظي، قم المقدّسة، مركز منشورات إسراء، ١٣٨٦هـ.ش)، من خلال الاستفادة من منهج الحكمة المتعالية، ببيان علاقة العقل والدين، وتوجيه طريق أسلمة العلوم.

(٣) أشكوري، فنايي: مقدّمة على الفلسفة الإسلاميّة المعاصرة، قم المقدّسة، مؤسّسة الإمام الخميني قدس سره التعليميّة البحثيّة، ١٣٨٩هـ.ش، ص٢٤٦.

(٤) أشكوري، فنايي: منزلة العقل والوحي في هندسة المعرفة البشريّة (تحليل لرؤية آية الله جوادي الآملي في كتابه «منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة»)، المعرفة الفلسفيّة، مجلة فصلية تخصّصية، العدد٢٤.

يعتقد آية الله الشيخ جوادي الآملي بأسلمة جميع العلوم، الأعمّ من العلوم التجريبيّة والإنسانيّة، لكنّ هذه الرؤية قائمة على الترسيم الصحيح والهندسي للعلاقة بين العقل والدين، «**حيث شغل النزاع بين العلم - الذي هو نتاج العقل - والدين - الذي هو تحفة الوحي- عقول الكثيرين لسنوات... وهذا النزاع هو حصيلة التصوّر الخاطئ للعلاقة بين العلم والدين، ويقوم على فكرة تعارض العلم والدين**»[١].

من هنا، فمن خلال العلم بآفات الوضع الراهن، يمكن تحديد آفتين هما السبب في تصوّر التعارض بين العقل والدين، والعلم والدين:

الآفة الأولى: أنّ قصر الدين على النقل، وإخراج العقل من دائرة المعرفة الدينيّة، أدّى إلى توهّم التعارض بين العقل والدين.

الآفة الثانية: أنّ النظرة الأفقيّة للعلم، والنزعة التصوّرية الطبيعيّة عن تمام عالم الوجود، وانفصال العلوم بعضها عن بعضها الآخر، خاصّةً عن الفلسفة والرؤية الكونيّة الإلهيّة، كلّ ذلك أدّى إلى تصوّر التعارض بين العلم والدين. وباعتقاده: إذا أمكن إزالة هذين التصوّرين الحاكمين على العلم الديني والعلوم الراهنة، فسوف يعبّد الطريق أمام إنتاج العلم الديني وأسلمة العلوم.

«**إنّ فكرة أسلمة العلوم تؤدّي بالنتيجة إلى التوفيق بين العلم والدين، وإزالة الغفلة عن مكانة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، وإلى إزالة الغربة والمسافة التي رُسِّخت خطأً بين العلم والدين، لا أن نرفع اليد عن المنهج التجريبي، ونطرح آليّة جديدة بالمطلق ومبتدعة للعلوم الطبيعيّة**»[٢].

و«**إنّ ترسيم خطّة جامعة للدين، والعقل، والعلم، وتبيان العلاقة في ما بينها، سوف يحوّل التعارض إلى تفاهم وتوافق:**

١- من خلال إدخال العقل(الأقسام الأربعة كافّةً، التجريبيّة، نصف

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص١٤.
(٢) م.ن، ص١٤٣.

التجريبيّة، التجريديّة، والشهوديّة) في نطاق المعرفة الدينيّة.

٢- من خلال تنسيق المجالات المعرفية وعودة الطبيعيّات إلى حضن الإلهيّات، سوف يمهَّد الطريق لإنتاج العلم الديني.

ومن هنا، يمكن للعلوم أن تكون إسلاميّة لثلاثة أسباب:

إذا كان العلم نتاج العقل، والعقل أيضاً داخلاً في نطاق الدين، سينتج عن ذلك حتماً أنّ العلم داخل في نطاق الدين.

بما أنّ العلم يتولّى مهمّة اكتشاف الطبيعة والعالم ودراستهما، والعالم بتمامه هو من فعل الله وصنعه، إذن، العلم إلهي وديني، ولا يوجد علم إلحاديّ أبداً.

يمكن للعلوم من خلال الفهم الاجتهادي للخطوط العامّة للكتاب والسنّة، استخراج أصول ومباحث متعلّقة بالطبيعة والإنسان واستخدامهما، وجني بركات وفيرة عبر هذا الطريق.

وبهدف توضيح هذه الخطّة الجامعة عن العلم الديني وهندسته تقوم هذه المقالة بتوضيح نظريّة آية الله جوادي الآملي وشرحها في صدد تنظيره للهندسة الجامعة للعلم الديني.

أولاً: الفصل بين علم تكوّن الدين والمعرفة الدينيّة:

يفرّق آية الله جوادي الآملي بين علم تكوّن الدين وعلم معرفة الدين. وفي علم معرفة الدين يفصل معرفة النبي (الوحي) المعصومة للدين، عن المعرفة غير المعصومة له.

وعلى هذا الأساس، فالدين يمكن طرحه على مستويين: المستوى الأوّل يعود إلى تكوّن الدين ووجوده، والمستوى الثاني يعود إلى معرفة الدين[١].

١- حقيقة الدين:

يعود وجود الدين وتكوّنه، إلى الذات الإلهيّة المقدّسة على نحو الحصر.

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص٢٣.

ودور أنبياء الله عليهم السلام منحصر في حدّ العلّة القابلة، حيث لديهم القابليّة المحضة، وليست لهم أيّ مشيئة على صعيد الدين وإيجاده وتشريعه. فهذا الأمر يختصّ بالذات الإلهيّة المقدّسة[١].

بناءً على هذا، فـ«**الدين مجموعة من العقائد والأخلاق، والقوانين الفقهيّة والحقوقيّة المحدّدة من قِبَل الله تعالى لهداية البشر**»[٢].

٢- المعرفة الدينيّة: تُطرح هذه المعرفة على مستويين:

أ- المعرفة الصادرة عن الوحي:

إنّ المستوى الأوّل للمعرفة الدينية هو المعرفة المعصومة الكاملة الحضوريّة، بحيث لا تعتريها أيّ شائبة. وليست هي عين اليقين، بل هي حقّ اليقين. فكلّ ما أوجده الله تعالى وشرّعه، بصفته شريعة وديناً، وكان في دائرة الوحي، تكون معرفته معصومة لا شائبة فيها، فلا طريق للشبهة والاشتباه إليها، سواءً أكان الاشتباه علميّاً أم عمليّاً، ولا للخطأ والخطيئة في هذا المجال، فكلّ ما يرجع إلى الوحي فهو معصوم، وتلقّيه أيضاً يكون تلقيّاً معصوماً يرافق المراحل الثلاث للعصمة: العصمة في مرحلة التلقّي، والعصمة في مرحلة الحفظ، والعصمة في مرحلة الإملاء. فالوحي معرفة يلهمها الله لنبيّه وحجّته.

وبناءً عليه، ألفاظ القرآن ومعانيه هي عين الوحي الإلهي. والمعصوم يفهم الوحي نفسه من دون اشتباه، حيث «**إنّ المحتوى والمضمون الوحياني للقرآن لا يدركه إلّا المعصومون**»[٣].

ب- المعرفة النقليّة:

المجال الآخر من المعرفة الدينية هو مجال المعرفة غير المعصومة

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص٢٤.
(٢) م.ن، ص١٩.
(٣) م.ن، ص٣٦.

للوحي. وهذا النوع من المعرفة ليس معرفة معصومة كاملة ولا على مستوى العلم الشهودي وعين اليقين وحقّ اليقين، بل هو في مستوى العلم الحصولي، الذي يُطرح في قالب الألفاظ والعبارات الدينيّة. وبعبارة أخرى: هو المعرفة التي تتشكّل خلف ستار عبارات الوحي والآيات الإلهيّة، حيث إنّ الأفراد يتعاملون مع هذه الألفاظ والعبارات. وهنا، في مجال المعرفة الدينيّة، يُعرَف الوحي عن طريق النقل، حيث يُطلق على هذا المستوى من المعرفة الدينيّة اسم «**النقل**»، وتُستخدم المعرفة النقليّة أو الدليل النقلي. ومن الواضح أنّ الاختلاف بين هذين المستويين من المعرفة كبير. «**والمراد من النقل هو إدراك البشر وفهمهم للوحي، وليس الوحي نفسه، ذلك أنّ الوحي نفسه متيسّر فقط للمعصومين من البشر كالأنبياء عليهم السلام، وما هو بين أيدي البشر العاديّين هو فهم وتفسير للوحي**»[1].

ثانياً: المعرفة الدينيّة ليست حصيلة النقل الصرف:

يعتقد آية الله جوادي الآملي في معرفة آفات الوضع الراهن للعلم الديني أنّ هناك خلطاً واسع النطاق بين الوحي والنقل قد ساد الجوّ العامّ. فما هو متصوّر، وبشكل واضح لا لبس فيه، أنّه لا يوجد انفصال بين هذين المستويين من المعرفة. فيُتلقّى الوحي على أنّه النقل نفسه، والنقل على أنّه الوحي عينه. وعبر هذا الطريق يُتصوّر الدين مساوياً للنقل. والحال أنّ النقل هو ما طُرِحَ لنا من قِبَل أنبياء الله عليهم السلام عن الوحي.

نعم، لا شكّ أنّ حروف القرآن وحركاته كافّة هي وحي، لكنّ مقتضى كون هذه الحروف والحركات والألفاظ عبارات وكلمات وأمثالها، شكّل لها حجاباً في إيصال المعنى، ولا يسمح هذا الحجاب تباعاً بإيصال المعنى

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص١٨١.

كما هو موجود في الواقع إلى عقولنا. لذا نرى كلّ هذا الخلاف بين العلماء في تفسير النقل.

ومن هنا، ينبغي الإلفات إلى أنّنا الآن في خدمة النقل لا في خدمة الوحي، فالأنبياء عليهم السلام هم وحدهم في خدمة الوحي. ولشدّة ما يُبتلى النقل بحجاب الألفاظ، فهو يرسّخ العلاقة بالمعنى. وعلى هذا الأساس، فالنقل غير الوحي وغير التلقّي المعصوم عن الوحي[١].

ثالثاً: العقل والنقل معاً يشكّلان المعرفة الدينيّة:

١- العقل ليس في عرض الدين:

إنّ شأن العقل شأن كشف. فالعقل سراج ومصباح، أمّا الدين فهو طريق ومسير. وأنّى للمصباح أن يكون طريقاً؟ فوظيفته الإنارة والدلالة على الطريق، وليس هو الطريق نفسه. وحيث إنّ دور العقل لا يتعدّى الكشف، ولا حيثية للعقل سوى الإنارة والإضاءة، فليس من شأنه أن يحكم، ولا أن تكون له حيثيّة الإيجاد والتشريع.

لذا، لا يمكننا وضع العقل إلى جانب الدين، ذلك أنّه في مجال تكوّن الدين المقام هو لإرادة الله وتشريعه. فالذي يمكنه أن يضع الدين ويشرّعه هو الخالق، وكون العقل ليس خالقاً، فهو ليس بشارع أيضاً[٢].

٢- العقل ليس في مقابل الوحي:

من ناحية أخرى، لا يكون العقل أيضاً مقابل الوحي، ذلك أنّ المعرفة المتأتّية عن الوحي هي من سنخ العلم الحضوري ومشفوعة بالعصمة، فهناك عين اليقين وحقّ اليقين. أمّا العقل فيبقى في دائرة المفاهيم، وهو من سنخ العلم الحصولي، حيث لا يمكنه تجاوزه إلى علم اليقين.

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص٣٣.
(٢) م.ن، ص٣٨-٤٥.

نعم، طالما أنّ الأمر في إطار الألفاظ والعبارات والمفاهيم، فللعقل دور وطريق، لكن لا طريق له قطعاً إلى دائرة الوحي ونطاقه الذي هو نطاق العينيّة وشهود الحقيقة. لذا، فإنّ جعل العقل والوحي أحدهما إلى جانب الآخر أمر خاطئ[١].

٣- العقل هو في مقابل النقل:

إذا أراد الانسان أن يجد طريقه إلى الدين والوحي، فليس له طريق سوى العقل، ذلك أنّ علينا قبل الوصول إلى مرحلة الوحي، تحصيل العلم واليقين ببعض المطالب، كالبحث عن المبدأ والمعاد، والصفات الإلهيّة، وأنّ الصفات عين بعضها بعضاً، وأنّها عين الذات، وأنّ لله تكويناً وتشريعاً، وأنّه أرسل الأنبياء عليهم السلام من أجل تشريعه، وأنّ أنبياء الله عليهم السلام معصومون، وقد أدخلوا أنفسهم الميدان الإنساني من خلال الإعجاز، وأنّ الأنبياء عليهم السلام يحملون الكتاب الإلهي، وجميع هذه الأمور نتوصّل إليها عن طريق العقل. بناءً على هذا، فالعقل يكشف أصل وجود حقيقة الدين[٢].

ومن ناحية أخرى، مع أنّ النقل بلحاظ الألفاظ والعبارات قد جاء عن الوحي، إلّا أنّ فهمه ممكن عن طريق العقل. إذن، شأن العقل في هذا المقام بصفته مصدراً لإدراك الأحكام الإلهيّة شأن الكاشف والمزيل للستار عن الأحكام الإلهيّة. وبعبارة أخرى: العقل يدرك الدين، ولا يُنشىء الأحكام الدينيّة، أي أنّ العقل لا يضيف شيئاً إلى الدين، بل هو كالمرآة يبيّن حكم الله. «**فالدليل النقلي يقدّم في الحقيقة قول الله تعالى، والدليل العقلي يمكنه كشف الفعل، والحكم والقانون التكويني والتدويني**»[٣].

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص٥٠.
(٢) م.ن، ص٥٢.
(٣) م.ن، ص٦٥.

والعقل - من وجهة نظر آية الله جوادي - كالنقل، حجّة ومعتبر أيضاً، ومن هذه الناحية، لا فرق بينهما، ذلك أنّ العقل والنقل يرجعان إلى المبدأ والمصدر نفسه. فالنقل هو «**ما أنزله الله**»، والعقل هو «**ما ألهمه الله**»[١]. وجميع مراتب العقل، من العقل التجريبي إلى العقل المحض، حتّى العقل العرفي الموجب للطمأنينة العقلائيّة، هي حجّة شرعيّة[٢]. والعقل البرهاني يثبت وجود الله، والعالم -أيضاً- هو فعل الله، والدين هو قول الله. إذن، ما يدركه العقل هو إمّا: فعل الله وتكوينه، أو قوله وتشريعه. ونطاق النقل - أيضاً - هو فعل الله وقوله.

بناءً عليه، فالعقل والنقل يؤدّيان العمل نفسه، ولكلّ واحد منهما طريقه لمعرفة الوحي والدين[٣].

من هنا، فالعقل والنقل طريقان يؤدّيان إلى الدين. وعليه، فـ«**العقل والنقل بعد الوحي وفي ظلّه، كلاهما يؤمّنان مصدراً لعلم معرفة الدين**»[٤]. وبعبارة أخرى: من أجل فهم الدين، نحن بحاجة إلى كلّ من العقل والنقل. ولا يمكن الحصول على الأحكام والمعارف الدينيّة بمجرّد الاستناد إلى النقل. «**إذن، تتمّ مراحل إدراك حكم الله والفهم المعتبر - الذي له الحجّيّة - للدين، عندما يكون الاثنان منبعاً للدين، أي عندما نبحث في العقل والنقل بشكل تامّ. عندها يمكننا الادّعاء بأنّ الإسلام يقول كذا وكذا في مسألة ما. [بعبارة أخرى] إنّ مجموع الآيات والروايات والعقل يمكن أن تكون محددة لأحكام الإسلام، وأن تقدم الحجّة الشرعيّة في باب فهم الدين**»[٥]. ومفاد هذا الكلام: أنّ كلّاً من العقل والنقل بمفرده ومن دون الآخر غير كافٍ. وعليه، لو أنّ شخصاً اقتفى أثر الدين من خلال مصباح العقل وحده أو النقل وحده، سوف

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص١٣.
(٢) م.ن، ص٧١.
(٣) م.ن، ص٦١.
(٤) م.ن، ص٢٤.
(٥) م.ن، ص٧٣.

يحصل على علم ناقص بالدين. وخلاصة الكلام: إنّ العقل البرهاني يخبر عن فعل الله، والنقل المعتبر يحكي عن قول الله، فلا فرق بينهما، حيث إنّ العقل والنقل هما جناحا التحليق في الفكر الإسلامي، وكلاهما يُداران ويوجَّهان بقيادة الوحي السماوي، وينبغي اجتناب الإفراط في إعطاء القيمة للعقل، حتّى لا يُجعل في مقابل الوحي، كما ينبغي اجتناب التفريط فيه[١].

٤- لا تعارض بين العقل والدين:

بناءً على المقدّمات السالفة، إنّ الكلام عن تعارض الدين والعقل لا واقعيّة له، ذلك أنّ العقل ليس في مقابل الدين ولا في مقابل الوحي، بل هو قرين النقل. وعليه، فالكلام سوف يكون عن تعارض العقل والنقل، وليس العقل والدين، حيث إنّ تعارض الفرع مع الأصل خطأ، ولأنّه اتّضح - أيضاً - أنّ لا سبيل للخطأ إلى الوحي والدين، لكنّ الخطأ والاشتباه ممكنان في النقل وفي العقل. «**فالوحي سلطان العلوم، ولا سبيل لأهل العلوم العقليّة والنقليّة (الحكماء والفقهاء) إلى دائرته. والعلوم العقليّة والنقليّة كلاهما مشفوعان بالأخطاء والاشتباهات، والحال أنّه لا طريق للخطأ إلى ساحة الوحي الإلهي**»[٢].

٥- العلم العقلي جزء من المعرفة الدينيّة:

إذا كان للعقل مكان في دائرة المعرفة الدينيّة، فلا يمكن اعتبار العلم الناتج عنه خارجاً عن دائرة المعرفة الدينيّة. حيث إنّه - عادةً - ما تُعدّ نتاجات العقل التي تعتبر العلوم والعلم التجريبي جزءاً منها، خارجةً عن نطاق المعرفة الدينيّة. وهذا الاعتقاد ناشئ عن عدم وضوح مكانة العقل ومنزلته في هندسة المعرفة الدينيّة. فإذا كان العقل حجّة دينيّة مُوصِلَة

(١) جوادي الآملي، عبد الله: رسالة إلى مؤتمر «الفلسفة والدين» في جامعة شيراز، ربيع ١٣٨٩هـ.ش.
(٢) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص٣٤.

إلى حكم الدين، إذن، المحصولات العقليّة بالمعنى الواسع الشاملة للعلوم الطبيعيّة، والإنسانيّة، والرياضيّة والفلسفة، توصل إلى المطالب الدينيّة، لا أنّها متمايزة وغريبة عن الدين»[١].

«بناءً عليه، إذا ما حقّق مفكّر بطريقة منهجيّة، ووصل إلى هذه النتيجة، وهي: أنّه من أجل حفظ مياه الأمطار وتحسين أوضاع الناس ينبغي إنشاء سدّ إسمنتي، مضافاً إلى حفظ الماء، ليمنع الأضرار المحتملة الناشئة عن السيول، ويؤثّر في البيئة تأثيراً إيجابيّاً، ويفيد في القطاع الزراعي، وفي تربية المواشي، والصناعة، ويؤمّن أيضاً مياه الشرب للناس. فإذا خالف معطياته العقليّة وعمل بنحو آخر، سوف يُعاقب يوم القيامة، ولا يمكنه الادّعاء أنّه لم يرد في القرآن والروايات مثل هذا الأمر بإنشاء السدود، ذلك أنّ عقله دلّه وقدّ تمّت حجّة الله عليه»[٢].

رابعاً: توجيه العلوم نحو الفلسفة:

يرى آية الله جوادي الآملي أنّ **«الفلسفة تتولّى ريادة جميع العلوم، ذلك أنّها تبيّن مجال كلّ علم وسعته المعلومة. وكلّ علم من العلوم التجريبيّة والرياضيّة والإنسانيّة، كالحقوق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، ونظائرها محدود. أمّا الفلسفة فتبحث في الأزل والأبد ومجموعهما، أي السرمد، وهي أوسع نطاقاً من العلوم المذكورة. ولأنّ جميع المعلومات تُعدّ جزءاً من العالم، فالعلوم المتعلّقة بها هي أيضاً تحت قيادة العلم الذي يتولّى معرفة العالم اللامحدود، ذلك أنّ إثبات وجود موضوعات العلوم ومعرفة نظام العلّة والمعلول الذي لا ينتظم علم دونه كلّها تُعدّ من مباحث الفلسفة المطلقة العميقة. بناءً عليه، إنّ قيادة قافلة العلوم هي بعهدة سيّد القافلة، أي الفلسفة**

(١) الآملي، خصائص الفلسفة وعلاقتها بالعلوم، م.س، ص١٦٧.
(٢) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص ١١٥- ١١٦.

العامّة»[١]. وعلى هذا الأساس، **«إذا كانت الفلسفة المطلقة التي تتكفّل هداية جميع العلوم مصونة عن آفة الخطأ، فإنّ جميع العلوم التي تضمن الحضارة الأصيلة سوف تبقى مصونة من آفة الخطأ»**[٢]. من هنا، كانت الفلسفة المطلقة هي التي تجعل جميع العلوم إلهيّة أو إلحاديّة، **«ذلك أنّ طبيعة كلّ علم تحدّدها الفلسفة المطلقة المحدِّدة للمصير. والعلم الوحيد المكتفي ذاتيّاً في كونه إلحاديّاً أو إلهيّاً هو الفلسفة التي كُتبت هويّتها بقلم الحبر. فلم تكن الفلسفة المطلقة في أوائل ظهورها إلحاديّة أو إلهيّة، ذلك أنّها لم تكن بعد قد أعملت البحث الدقيق في مبدأ الوجود ومآله، وهل هناك من مبدأ للنظام الكوني، «وأنّ للكون صانعاً هو الله»** أم لا. وهل أنّ ظواهر الكون أزليّة ووجدت بنفسها أم أنّ لها خالقاً حكيماً أزليّاً. لذا، فالفلسفة قبل بلوغ حدّ نصاب البحث كانت محايدةً في ما يتعلّق بكونها إلهيّة أم إلحاديّة. مع أنّها قد تميل من خلال السعي المستمرّ إلى أحد الطرفين، وتنتقد بالنتيجة ذاك الطرف المحدّد بعينه. فإذا سلكت الطريق المعوجّ وأعمى عينيها غبارُ الضلالة، واختفت الرؤية الكونيّة الأصيلة بعمى الغبار الذي غطّاها، فالله الذي ظهر من مكمن غيب الوجود بمئة ألف مظهر، ليُرى بمئة ألف عين، لن يُرى ولو بعين واحدة، ولن تسمع نداءه الرحيم أبداً، ولن تتلقّى رسالته المحبّبة أبداً، وسوف تتصوّر العالم عبثاً، والنفس هراءً، والآخرين بلا فائدة، والموت آخر الطريق، وموت الجسد فناءً، لا هجرةً. ففلسفة كهذه تنبعث من الإلحاد تجعل جميع العلوم إلحاديّة، ذلك أنّ العلوم الجزئيّة لا تتكفّل إثبات وجود الله أو نفيه، إنّما هي في هذا المبحث الهامّ تابعة للفلسفة المطلقة. ومن خلال الإلحاد الذي تتّبعه تصبح جميعاً ملحدة، وتتصوّر موضوعات مسائلها من دون الله، وتعدّ العلم منحصراً فقط في ما يتوصّل إليه عقل البشر، وتكون هندسة أبحاثها الأرضيّة منها أم السماويّة أفقيّة،

(١) جوادي الآملي، عبد الله: خصائص الفلسفة وعلاقتها بالعلوم (رسالة إلى المؤتمر الدولي ليوم الفلسفة العالمي ١٣٨٩هـ.ش)، فصليّة الإسراء، السنة الثالثة، ملحق العدد٥، خريف ١٣٨٩هـ.ش، ص٨.
(٢) م. ن، ص ١٦٧.

أي أنّ الموجود الفلاني المحدّد، كان قبلاً هكذا، والآن هو هكذا، ويُتوقّع في المستقبل القريب أو البعيد أن يكون على هذه الصورة أو الوضع، من دون أن يُؤتى على ذكر المبدأ الفاعلي»[١].

خامساً: آفة العلم الحالي في السير أفقيّاً والغفلة عن السير العمودي:

يعتقد آية الله الآملي أنّ الاختصاصات العلميّة المتنوّعة لم تكن في الماضي بشكلها الحالي تخصّصيّة ومجزّأة، حيث كانت العلوم والمعارف تسير على طريق التقدّم على نوع من الانسجام والارتباط المضموني. وكان وضع العلم بنحو أنّ الرياضيّات والطبيعيّات تطوّرت في حضن الإلهيّات وفي تفاعل مباشر مع الفلسفة والحكمة الإلهيّة. وكانت الفلسفة الإلهيّة تتولّى بعض المباني الهامّة والأساسيّة للعلوم التجريبيّة، وترسّخ العلاقة العلميّة في ما بينها. أمّا اليوم فقد سبّب التخصيص الكبير للعلوم هذا الأثر الهامّ، وهو: أنّ معطياتها ونتائجها أصبحت غريبة بعضها عن بعضها الآخر ولا علاقة لها به، ما يؤدّي إلى تقديم بعضها تصوّراً مبهماً وغير متجانس وفاسداً عن الكون والبشر، ذلك أنّ «**علم عصر الحضارة، كالعلوم الماضيّة، يؤمن ويعتقد بنظام العلّة والمعلول. مع فارق يكمن في أنّ انفصاله عن الفلسفة الإلهيّة والدينيّة، أدّى إلى عدم اهتمامه بالعلّة الفاعليّة والعلّة الغائيّة للعالم، وحصر نطاق النظام العلّيّ في دائرة الحسّ والتجربة الضيّقين. فجلّ همّ العقل الحسّي والتجريبي هو البحث في العلل القابلة، بمعنى أنّ الشيء الفلاني، ما كان عليه قبل هذا، وما هو عليه الآن، وما سيؤول إليه أمره تحت تأثير العوامل الطبيعيّة الأخرى. هذا الأمر، بمعنى حدّ العلم التجريبي في السير الأفقي للأشياء والظواهر، والغفلة التامّة عن السير العمودي والصعودي للطبيعة والكون**»[٢].

(١) الآملي، خصائص الفلسفة وعلاقتها بالعلوم الأخرى، م.س، ص١١.
(٢) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص١٠٧-١٠٨.

من هنا، فإنّه يعتقد أنّ «**العلوم التجريبيّة الحاليّة تنطوي على عيب، ذلك أنّها تكمل طريقها في سير أفقيّ، فلا ترى للكون والطبيعة مبدأً، لا تحسب لهما غايةً ونهايةً، ولا تجد العلم الذي تمتلكه عطيّةً وموهبةً إلهيّةً. هذه النظرة التي تمثّل في واقع الوجود، ولا تنظر إلى الطبيعة، بوصفها مخلوقاً لله، ولا ترى لها خالقاً وهدفاً، بل تقوم صرفاً بدراسة ظاهر الطبيعة، وتعتبر العلم من مولّدات فكرها، لا موهبةً إلهيّة، تقدّم في الحقيقة علماً ميِّتاً، ذلك أنّها تنظر إلى موضوع دراستها بعين ميِّتة**»[١].

فلا يمكن الكلام عن الطبيعة هكذا، وتأسيس العلوم الطبيعيّة من دون التوجّه إلى الإلهيّات والفلسفة الكلّيّة. فما يُثبت عن حقائق الوجود في الحكمة والإلهيّات، ينبغي أن يُظهِرَ نفسه في العلوم الطبيعيّة والإنسانيّة، ومن خلال حضور محتواه المعرفي، تحقّق هذه العلوم الإنجازات. كما أنّ رأسمال هذه العلوم يناسب في بعض الموارد - أيضاً - عمل الحكمة والإلهيّات والبحث الديني. أمّا العلوم الحاليّة والمتعارفة، وحتماً الجامعات والمراكز المشغولة بالبحث والتحقيق في إطار هذا اللا انسجام الداخلي والتغريب غير الملائم، فهي من الأساس فاسدة، وأيّ فساد أكبر من أن يُتغافل في ميدان من ميادين العلم والمعرفة عن حقائق ووقائع تأخذ بها الاختصاصات المعرفيّة الأخرى، وأن يُتغافل عن وجودها ويتمّ تجاهلها[٢]؟

بناءً عليه، ينبغي إعادة النظر في هذه النظرة الفاسدة للعلم التي لا ترى صنع الله في العالم، وتلقي كلّ شيء إلى الحظّ والصدفة، وتعتبر الكلام عن تأثير الله سبحانه وتدخّله في حوادث العالم خرافة وأساطير، وفي ظلّ وجود شخص يتلقّى في جوّ مسموم تلقّياً ناقصاً عن علم النّفس، فلا يرى في الطبيعة سوى العلل والأسباب المرئيّة الماديّة، لذا فهو غير قادر على فهم هذه المسألة، وهي: أنّ مبدأً حكيماً عمله عين الحكمة، خلق

(١) الآملي، خصائص الفلسفة وعلاقتها بالعلوم الأخرى، م. س، ص١٣٤- ١٣٦.
(٢) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص١٣٦.

العالم، وهو المخرج لمشهد الوجود، وكلّ ما كان ويكون فبإذنه وإرادته. والمحصّلة هي:

١- النظرة الطبيعيّة والحسّيّة المحضة لا ترى للمعلوم مبدأً وغايةً، لذا فهي تطلق اسم الطبيعة على الخلقة.

٢- بالنسبة للعالِم، أي الشخص المادّي نفسه، فهو لا يعتقد بالمبدأ والمعاد، ويخال أنّه جاء من التراب وسوف يتحوّل ثانيةً إلى تراب، وبعدها سيؤول إلى العدم، ذلك أنّه يتصوّر الموت فناءً، وليس تركاً لمقام الجسد وهجره إلى مرحلة أعلى.

٣- لا ترى هذه النظرة للعلم مبدأً وهدفاً، بل ترى أنّ بعض العلم هو نتيجة لسعي العالِم ومدى سعة خياله، وبعضه الآخر مُوكَل إلى الحظّ والصدفة والحوادث الطارئة...[١].

سادساً: الوحي والفلسفة الإسلاميّة من خلال الاهتمام بالسير الأفقي والطولي، يعطيان الصفة الإسلاميّة للعلم:

إنّ طريق الحلّ - برأي آية الله جوادي - لإزالة نقص هذا العلم «**الناقص**»، الذي يُعبّر عنه بأسلمة العلوم والجامعات، هو التغيير في الرؤى وليس التعمية. فأسلمة العلوم رهن بالتغيير الأساس في النظرة إلى العلم والطبيعة وتدوين المتون الدراسيّة الأنموذجيّة، وتنسيق المجالات المعرفيّة، وعودة الطبيعيّات إلى حضن الإلهيّات. وطالما أنّ العلوم والجامعات لم تتخلَّ عن سيرها الأفقيّ المحدود، ولم تبدأ السير الصعودي، فإنّ أيّ فعل أو عمل شكلي وظاهري، لن يحدث تغييراً ماهويّاً في بنية العلوم الناقصة[٢]. وهذه الرسالة الكبرى تتولّاها الفلسفة المطلقة، حتى من خلال الترسيم والنظرة السالمة للوجود والعلم تُعتبر الطبيعة خلقةً، ويتمّ إلى جانب الأسباب الطبيعيّة، الإلفات أيضاً، إلى

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص١٣٧- ١٣٨.
(٢) م.ن، ص١٣٦.

الأسباب المعنويّة والماورائيّة.

ولأنّ الفلسفة الإسلاميّة قد تحرّرت من تكاثر الإلحاد، ووصلت إلى كوثر كونها إلهيّة، ولأنّها تعتبر بداية عالم الإمكان ونهايته صنع الخالق الحكيم، وتعرّف نظام الخلقة بوصفه نظاماً ذا هدف، وتعدّ الموت هجرةً لمرحلة الدنيا إلى مرتبة أعلى، أي الآخرة، وتعتبر الموت خروجاً من بدن الطبيعة، وارتداءً للرداء البرزخي الفاخر، وتؤمن بالحساب الدقيق لكلّ علم ورؤية ومنهج وتربية للنفس.

من هنا، «**مثل فلسفة ملكوتيّة كهذه للوجود، تعتبر موضوعات العلوم كافّةً مخلوقةً لله، وقانون العليّة والمعلوليّة يرجع بعمق ودقّة تامين إلى الوجود الرابط والوجود المستقلّ. وترى لباس خلقة الله على جسد كلّ موجود إمكاني، وتجد الاختيار والإرادة الإنسانيّة من أفضل منح الله للبشر، لكي يتسنّى للفرد والمجتمع عبر هذا الطريق، وباختيارهما، أن لا يضلّا، ولا أن يقطعا الطريق على أحد. فبالثمرة الطيّبة لشجرة أسلمة العلوم كافّة، أي بالاستناد إلى هذه الفلسفة الإلهية، تظهر جميع العلوم الأعمّ من التجريبيّة ونصف التجريبيّة والتجريديّة والشهوديّة، وبالتعبير الرائج: الطبيعيّات، والرياضيّات، والإلهيّات، والأخلاقيّات والعرفانيّات، علوماً دينيّة، بحيث لا يُطرح علم في أيّ عصر ومصر إلّا أن يولد ويبقى إلهيّاً. وما لم يكن علماً صائباً فلن يولد. والظنّ بشيء أنّه علم، وهو ليس بعلم، لا يجعل منه علماً**»[1].

سابعاً: العلم لا يمكن أن يكون غير إسلامي:

إنّ العلم - برأي آية الله جوادي الآملي - ليس مثل السجّاد، ذي صناعة آليّة ويدويّة، بمعنى أنّه لا يقسّم العلم إلى إسلامي وغير إسلامي، كما يقسّم السجّاد إلى ما حيك بالآلة أو باليد. لذا، فالفيزياء، والكيمياء، أو

(١) الآملي، خصائص الفلسفة وعلاقتها بالعلوم، م.س، ص ١٣٤ - ١٣٦.

الطبّ لا تُقسّم إلى إسلامي وغير إسلامي[١]. بل «**العلم إذا كان علماً، لا وهماً وخيالاً وفرضيّةً محضةً، لا يمكن أن يكون غير إسلامي. فالعلم الذي يتصفّح أوراق كتاب التكوين الإلهي، ويرفع الستار عن أسراره ورموزه، هو حتماً إسلامي وديني، ولا معنى لأن نقسّمه إلى ديني وغير ديني، وإسلامي وغير إسلاميّ**»[٢].

على هذا الأساس، لدينا نوعان من العلم الدينيّ، أحدهما: يجعل قول الله موضوعاً لبحثه، والآخر فعل الله، «**فالعلوم التي تشغل طائفة من المهتمّين بالعلم الديني المستندين إلى الأدلّة النقليّة والمشتغلين بفهم ما قاله الله وتفسيره، والجاعلين كلام الله محوراً وموضوعاً لأبحاثهم، لا شكّ أنّها إسلاميّة ودينيّة. ومن ناحية أخرى، توجد إلى جانب الحوزات العلميّة، الجامعات الإسلاميّة، التي تصبّ همّتها على إدراك فعل الله وفهمه، وتهتمّ في تفسير عالم الخلقة. فإذا أدّى تفسير فعل الله إلى العلم الإسلامي، فيعدّ تفسير فعل الله علماً إسلاميّاً أيضاً**»[٣].

من هنا، فـ«**إضافة عبارة الإسلامي إلى العلم أو العلوم هي إضافة توصيفيّة لا تقييديّة، بمعنى أنّ وصف العلم أو العلوم بـ«الإسلاميّة»**، ليس لناحية تمييزها عن العلوم غير الإسلاميّة، بل لذكر الوصف اللازم للعلم، أي أنّ العلم لا يكون إلّا إسلاميّاً، والعلم الذي لا يكون إسلاميّاً، ما هو سوى تصوّر وخيال ولهو لتمضية الحياة الدنيا»[٤].

ثامناً: إيمان العالِم وكفره لا يجعل العلم إسلاميّاً وغير إسلاميّ:

يرى صاحب هذه النظرية أنّ: «**إيمان العالِم والمفسّر وكفرهما لا يؤثّران**

(١) جوادي الآملي، عبد الله: العلم النافع والباني للهويّة، فصليّة الإسراء، السنة الأولى، العدد الأوّل، خريف ١٣٨٨هـ.ش، ص٢٥.
(٢) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص١٤٦.
(٣) م.ن، ص١٦٠.
(٤) الآملي، العلم النافع والباني للهوية، م.س، ص٢٧.

في أصل كتاب التكوين وفهمه، وأصل العلم بكتاب التشريع، ولا يجعلان العلم إسلاميّاً وغير إسلاميّ... [لكنّهما] يؤثّران في كمال الفهم، وفي كون الفهم أصحّ وأعمق»[١]. لهذا السبب، فإنّ علم الفيزياء - على سبيل المثال - «**في حال كان مفيداً لليقين والاطمئنان العقلائيّ، ولم يكن مجرّد فرضيّة ووهم وظنّ، فهو إسلاميّ يقيناً، حتّى ولو كان الفيزيائي ملحداً أو شكّاكاً. فبسبب انحرافه وإلحاده وقطعه علاقة عالم الطبيعة بالله، وعدم إيمانه بالخلقة، لا يوجب لفهمه للطبيعة، في صورة كونه علماً «واقعاً»**، أو كشفاً مفيداً للاطمئنان، أن يُعتبر فاقداً للحجّيّة والاعتبار الشرعي، وأن لا يُعدّ تفسيراً لفعل الله تعالى»[٢].

تاسعاً: قيام العلم على أصول الكتاب والسنّة:

يرى آية الله الآملي، من خلال توضيحه مسألة الاجتهاد ورواية الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام التي تقول: «**علينا إلقاء الأصول وعليكم بالتفريع**»، أنّ أهل البيت عليهم السلام قالوا: «**نحن نلقي في كلّ فرع من العلوم القوانين الأوّليّة، وعليكم أنتم استخراج الفروع، سواءً أكان في العلوم الدينيّة، أم التجريبيّة، أم التجريديّة، أم التلفيقيّة. وبتعبير آخر: سواءً أكان في العلوم الإنسانيّة أم في العلوم الطبيعيّة**»[٣]. وبعبارة أخرى: «**إذا تأمّل علماء العلوم الطبيعيّة في آيات علم الكون ورواياته المرتبطة بالطبيعة، كما يتأمّل الفقهاء العظام في هذه المجموعة من الروايات الفقهيّة والأصوليّة، سوف ينال العلم التجريبي بركات عظيمة**»[٤].

لذا، ينبغي القول: إنّ الأصول والكلمات الجامعة التي يذكرها القرآن والحديث عن الكون، والعالم، والبشر، و- أيضاً - عن ترسيم الخطوط الأصليّة للرؤية الكونيّة، لا تقلّ أبداً عن الروايات الفقهيّة،

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينية، م.س، ص١٤٦.
(٢) م.ن، ص١٤٣-١٤٤.
(٣) م.ن، ص٨٦؛ جوادي الآملي، عبد الله: الإسلام والبيئة، قم المقدّسة، منشورات الإسراء، ١٣٨٦هـ.ش، ص١٠٦-١٠٧.
(٤) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينية، م.س، ص٨٦.

وكما تُجعل بعض النصوص الدينيّة، بالاستناد إلى القواعد العقليّة والقوانين العقلائيّة، مورد بحث أصولي، حتّى تكون مفتاحاً لفهم النصوص الفقهيّة، ينبغي وبالأدوات الفنّيّة نفسها، لبعض النصوص الدينيّة الأخرى التي صُدِّرت بوصفها أداة لمعرفة العالم والبشر، أن تُجعل مورد بحث ودراسة، وأن تُبيّن الأدوات المناسبة للمعرفة الاجتهاديّة بالعلوم والفنون الأخرى. وعندئذٍ، تبحث النصوص الواردة عن الرؤية الكونيّة، والتاريخ، والسيرة، والأخلاق، والصناعة، والفنّ البيئيّ، وأمثالها»[1].

عاشراً: مراحل إنتاج العلم الديني:

بعد الترسيم الجامع لخطّة ارتباط الدين، والعقل، والعلم، والهندسة الجامعة للعلم الديني، يطرح آية الله الآملي مراحل إنتاج العلم الديني وأسلمة العلوم التجريبيّة والمتون الدراسيّة في الجامعات في الخطوتين التاليتين:

١- الخطوة الأولى:

أ- إلغاء عنوان الطبيعة واستبداله بعنوان الخِلْقَة، أي إذا ما بحث عالم ما في أنّ الأثر الفلاني يؤثّر في المادّة المعدنيّة الفلانيّة، أو أنّ النوع الفلاني من النبات له مثل هذه الخواص والآثار، فبتغيير العنوان المذكور، يصبح يفكّر بهذا النحو ويبيّنه على هذا الشكل، وهو: أنّ هذه الظواهر والموجودات قد خُلِقَت على هذا النحو.

ب- أن يكون عنوان الخالق، بوصفه المبدأ الفاعلي ملحوظاً، أي أنّ الخالق الحكيم جعل مشهد الخِلْقَة على هذا النحو، بحيث تكون لها هذه الآثار والمميّزات الخاصّة.

ج- أن يُنظر إلى هدف الخِلْقة، وهو: عبادة الله ونشر العدل.

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينية، م.س، ص٨٦؛ الآملي، الإسلام والبيئة، م.س، ص١٢٦.

د- أن يُجعل الدليل النقلي المعتبر، كالآية القرآنية، أو الحديث صحيح السند، محوراً للبحث.

هـ- الاعتماد على الشواهد النقليّة وتعليلاتها والاستفادة منها.

و- أن لا يُدّعى في أيّ مورد من الموارد أنّ العقل كافٍ فيه، كما لا ينبغي الاكتفاء بالنقل فقط، وتنحية العقل.

ز- أن يكون تفسير كلّ جزء من أجزاء الخِلْقة من خلال أخذ تفسير الجزء الآخر بالحسبان[1].

٢- الخطوة الثانية:

بعد الخطوة الأولى تأتي الخطوة الثانية، أي التخلّي عن المنطق القاروني، ذلك أنّ التفكير القاروني يمنع من أسلمة العلوم. فمشكلة قارون تكمن في أنّه كان يحسب ثروته وموفّقيّته حصيلة سعيه وجهده وعلمه وعقله، ولم يكن يعترف بجزء لله تعالى من ذلك، وكان يقول -كما أورد القرآن الكريم-: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[2]. فكان عاقبة التمحور حول الذات والتعامي عن التأثير الإلهي أن خسف الله به الأرض.

إنّ النظرة القارونيّة لا تنحصر بمسألة جمع الثروة والنجاح الاقتصادي، بل إنّ حلّ هذا المنطق سوف يكون له آثار مضرّة. فعلى صعيد تحصيل العلم والمعرفة أيضاً، هناك الكثير من الأفراد لديهم تفكير قاروني، ويتّبعون المنطق القاروني، ذلك أنّهم لا يرون المعلّم الواقعي، ويعتبرون العلم حصيلة جهدهم وسعيهم واستعدادهم الفردي، غافلين عن أنّهم في تمام فترة التحصيل كانوا جالسين على سفرة إحسان المعلّم الواقعي، أي الله سبحانه.

بناءً على هذا، من خلال التخلّي عن المنطق القاروني، يحصل الإيمان بأنّ العقل والعلم رأسمال وموهبة إلهيّة، وكما أنّ النقل نظير العقل هو

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينيّة، م.س، ص١٤١.
(٢) القصص: ٧٨.

عطيّة الله وحجّته، لفهم الدين وهداية البشر، فالعقل والعلم أيضاً موهبة الله وحكمته لمعرفة دين الله»[١].

خاتمة:

«إنّ تحقيق الجامعة الإسلاميّة منوط بامتلاك العلوم الإسلاميّة. وتتوافر هذه العلوم من خلال:

أوّلاً: فتح الطريق أمام العلم إلى هندسة المعرفة الدينيّة، وفتح مظلّة الدين فوق رأسه.

ثانياً: النظر إلى الطبيعة على أنّها خِلْقةً، وعقد الاتّفاق والصلح بين الطبيعيّات والإلهيّات، والتخلّي في مسير العلم عن السير الأفقي الصرف، واعتبار كلّ نوع من الفكر الأصيل، والتفكير الخالص، والعقل الصرف، ونتاجات العالم الصائبة، موهبةً إلهيّةً منحها الله للإنسان»[٢].

(١) الآملي، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينية، م.س، ١٤٢-١٤٣.
(٢) م.ن، ص١٤٠-١٤١.